الاستشراق السينمائي في المغرب العربي

بقلم : محمد بن الأصفر

عرف الاستشراق فى ميادين الادب والتاريخ والرحلة (الجغرافيا) والاجتماع واخذ هذا المفهوم يتطور حتى أصبح يشمل كل شكل من اشكال الابداع كالاستشراق الفنى (اى الفن التشكيلى) (1) فاوحى لنا ذلك بان نطلق هذا العنوان على جزء مهم من دراسة مونيك وغى هانبال بعنوان : « السينما والمجتمع فى المغرب العربى » (2) وقد جاء فيه ما تعريبه (3) : « .. انه لو استثنينا حالة التونسى (من الجالية اليهودية) البار شمامة المدعو ـ شيكلى ـ الذى صور خلال عام 1922 فلما قصيرا بعنوان ـ زهرة ـ وخلال عام 1924 فلما طويلا : ـ عين الغزال ـ أو ـ فتاة قرطاج ـ فانه ليس هناك مغربى واحد مسك بآلة الكميرا فى العهد الاستعمارى . ويفسر هذا الامر بخشية الاستعمار من ان يرى الاهالى يمسكون يوما وسيلة تعبير مدمرة وذلك بنقل ظروفهم الحقيقية الى الشاشة ...

---

1) انظر فى هذا الاتجاه : « ملامح حركة الاستشراق الفنى حتى الحرب العالمية الثانية . لعلى اللواتى ـ مجلة الحياة الثقافية عدد 3 ـ السلسلة الثالثة وهو يخص الفن التشكيلى .

2) Monique et Guy Hennebelle : Cinéma et Société au Maghreb -
ضمن كتاب بعنوان : Culture et Société au Maghreb انتاج :
Centre de Recherches et d'etudes sur les Sociétés Mediterraneennes
Centre National de Recherches Scientifiques

3) الدراسة موضوعة باللغة الفرنسية قمنا بتعريبها بامانة فان لم نذكر بعض الاشياء فاننا لم نضف من عندنا ، ثم اننا لم نعرب الا ما يمكن ان يندرج تحت موضوع : « الاستشراق السنمائى » .

فالى سنوات الاستقلال لم يكن نقل الواقع الاجتماعى لبلاد المغرب العربى إلى الشاشة الا حقا محضا من حقوق الاوربيين وخاصة الفرنسيين منهم .

لقد قام كل من موريس روبار باتاى Maurice - Robert Bataille وكلوفويو Claude Veillot فى كتابهما (كاميراهات تحت الشمس (4) (Cameras sous le Soleil) الذى نشر بالجزائر العاصمة سنة 1956 ، قاما بتصنيف حوالى مائتى فلم سنمائى طويل وقع تصويرها بكل من تونس والجزئر والمغرب من سنة 1919 حيث قام لوتيزمورات Luitz Morat وبيار رينيي P. Regnier بتصوير شريط « اصحاب الاناقة الخمس الملاعين » « Les 5 Gent lemen maudits »

وان معظم هذه الافلام ــ ان لم تكن كلها ــ تبدو اليوم كتنكر صارخ للمجتمعات التى تظاهرت بتصويرها بامانة وهى كلها ــ او تقريبا ــ تترجم الرؤية المشوهة التى كانت تحملها أوربا عن العالم العربى .

ويمكن ان نفسر بواسطة المزحة التالية الصورة التى كان يقدمها السنما (الاستشراقى) عن العربى ففى احدى الافلام يذهب اوربى الى احدى مخافر الشرطة فى مكان ما من شمال افريقيا ليصرح للاعوان بوقوع حادث فيسأله العون عن عدد الضحايا فيجيب الاوربى بقوله : «إنسان واحد وعربيان اثنان » (5) .

« ان المغاربة يصورون (بفتح الواو) على شاشة الاوربى من خلال صورتين هزليتين (كركاتوريا) فاما ان يكون عنصرا من عناصر تكوين الفضاء السنمائى اى من عناصر الزينة لا فرق بينهم وبين شجرة النخيل او الجمل او المسجد او انهم (اى الاهالى المغاربة) اغبياء من شأنهم ان يعرقلوا الرسالة الحضارية لفرنسا بسبب خبثهم الوراثى ؛ .. فهم متعصبون بالمعنى الدينى على استعداد متواصل لاستعمال خناجرهم المشدودة لبرانيسهم وباختصار فالعربى اما ان يكون خفيف دم بغباوة او انه مشاغب وجلف . اما النساء العربيات فى هذه الافلام فهن اما ان تكن راقصات (أولاد نايل) ، أو بغيات فى القصابى (جمع قصبة) أو لاعبات أوراق .. »

---

4) يلاحظ الكاتب ان هذا الكتاب لم يعد موجودا فى السوق.
5) عربنا Homme بالفظ إنسان .

« اما الاوربى كشخصية فى هذه الافلام فهو الذى رفضتـه كل الطبقـات فى مجتمعه فجاء يبحث فى المستعمرات عن السلـم الذى يضمن لـه النجـاة السحرية والذى يمكنـه من تسلق الدرجات الاجتماعية التى عسرت عليـه فى بلده الاصلى .. شاب خائب ضغط عليه الطيش فهاجر بلده وعائلته التى طاردتـه لانه اصبح يجلب لها العار ، او شاب هجر بسبب هجـر حبيبتـه له فجـاء يبحث عـن تسلية ... (شـريط اللعبـة الكبيـرة لجـاك فايـدار (Jacques Feyder) او مثلا : هذا مدير حانـة ذو كرش كبيـرة يغمره العرق بفعل الشمس الافـريقية فى حـى يسكنـه بعض البيض وعربان يسكنون على بعد وهـو يتحكم فى مجموعة من الفتيات سيئـات السلـوك يقضين الوقت فى صنع الملابس الصوفية منتظرات قدوم جماعات الجيوش الملفوحة باشعة الشمس هم مـن الاناقـة والنشاط مـا يوحـى بتعطشهم للحضور الانثوى الذى كان ينقصهم مدة الاشهر التى قضوهـا فى الجبـال : ان النعت الذى يليق بجماعة الاوربيين فى المستعمرات هـو انهـم : « محل رثـاء » :

« وان ابطال هذا العالم الصغير الذى يكون شـرط الوجـود فيه مرتبطـا مباشرة باستغلال الشعوب المغربيـة هـم قليلا مـا يكونون (اى الابطـال) ابهياء فحتـى ضباط الجيش منهم فـانهم يكونون خارج عملهم العسكـرى ضعيفى الشخصية غير قادرين على التصرف فى حياتهم .. »

على أن أحسن أسلوب لدراسة مضامين هذا الانتاج السنمائى يكون أفضل ببث هذا النوع من الافلام والحكم عليها بعد نظرة كلية شاملة » .

ثم يلاحظ الكاتبان انه عندما كانا بصدد وضع هذه الدراسة فـان بيـار بولانجى كان على اهبة نشر كتاب بعنوان ـ السنما الاستعمارية المغربية عن طريق منشورات ، سيغارس (Seghers) مجمـوعة « سنمـا 2000 » ثم يضيفان انه مع فترة الاستقلال وبعدها اصبحت الافلام المتعلقة بالمستعمرات تصور الواقع بأكثر موضوعية مع تفاوت بين الفلم والفلـم مستشهـدا بفلـم (جحـا) الذى اعتبـر قبـل الاستقـلال الجزائرى تهجما على الاسلام فى حين اعتبر بعد الاستقلال فلما تقدميا وهو فلم تـونسى أخـرجه جـاك بـاراتيى الفرنسى الجنسية » .

وما هـذه الا فكـرة عن السنمـا التى رأينـا ان نطلـق عليهـا عبـارة : الاستشراق السنمائى ـ ونقصد الافلام التى صورت بلادنا او البلاد العربية بعقلية استعمارية مغرضة .

اعداد وتعريب : **محمد بن الاصفر**